

الاستقصاءات الفكرية والمنهجية للحداثيين في قراءة السنة النبوية
-قراءة الصحيحين أنموذجا-

إعداد: د/ عبد الرحمن معاشي

مخبر الدراسات القرآنية والسنة النبوية

مشاركة في الملتقى الوطني بعنوان: "صحيحا البخاري ومسلم في القراءات الحداثية".

كلية أصول الدين جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

ملخص:

تحاول هذه الورقة أن تجيب عن إشكالية مهمة تتمثل في الصعوبات والاستقصاءات الفكرية والمنهجية التي عانت منها الحداثة بمناهجها النقدية التفكيكية في إعادة قراءة النص الديني بما فيه النص الحديثي النبوي، مركزة على أحاديث الصحيحين -البخاري ومسلم- كنموذج.

لذلك عمدت إلى إعادة قراءته واستهدافه بأدواتها وجعله موضوعا للدرس النقدي، بيد أن رواد الحداثة.

وأولى هذه الاستقصاءات اتخاذها من النص الديني نفسه موضوعا للاهتمام والدراسة؛ فقد بات من المعلوم الحداثة العربية لم تستطع في صيرورتها التاريخية الراهنة تجاهل النص التراثي وإحداث قطيعة ابستمولوجية معه لأن من شأن ذلك أن يحدث شرخا تأباه طبيعتها المنهجية ويتنافى وبنيتها الفكرية، تباينت رؤاهم وأحكامهم القيمية تجاهه وفي ضوء ما طرحوا من مقولات تباينت آراء الباحثين لإنتاجهم بين مؤيد لها مبرر لمناهجها وأدواتها وأحكامها.

ومع حضور هذه الصعوبات وغيرها والتي لم تلتفت إليها الحداثة العربية حاولت جاهدة أن تتخذ من أحاديث الصحيحين موضوعا للنقد والهدم، وأن تجعل من البخاري ومسلم ظهرا للجلد والتعزير. وبناء على ما تقدم يمكن مناقشة هذا الموضوع وفق التصور الآتي:

مقدمة:

ثانيا: الاستقصاءات المنهجية في نقد الصحيحين

ثالثا: الاستقصاءات الفكرية الحداثية في نقد الصحيحين

رابعا: نماذج تطبيقية

خاتمة:

Abstract :

The intellectual and methodological obstructions of the modernists in reading the Sunnah

- Boukhari and Mouslim model -

This paper attempts to answer the important problem of the difficulties and intellectual and methodological difficulties that modernity has suffered in its critical and deconstructive approaches to re-reading the religious text, including the modern Hadith, focusing on the hadiths of the Sahihin - Bukhari and Muslim - as a model. The first of these difficulties taken from the same religious text is a subject of interest and study; it is known that Arab modernity could not in its current historical history to ignore the text heritage and create an epistemological break with him because this would create a crack in the nature of its methodological and incompatible intellectual structure, Therefore, it has re-read it and target it with its tools and make it the subject of critical study. However, the pioneers of modernity varied their views and values towards it and in the light of what they put forward different opinions of the researchers for their production among supporters of the justification for their curricula and tools and provisions.

With the presence of these difficulties and others, which did not pay attention to Arab modernity, I tried hard to take from the Hadiths of the correct of the subject of criticism and destruction, and to make Bukhari and Muslim back to critic.

Based on the above, this topic can be discussed according to the following plan:

First : introduction:

Second: Methodological reviews in the criticism of the correct

Third: modernist intellectual metaphors in criticizing health

Fourth: Application Models

Conclusion:

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فتحاول هذه الورقة أن تجيب عن إشكالية مهمة تتمثل في الصعوبات والاستعصاءات الفكرية والمنهجية التي عانت منها الحداثة بمناهجها النقدية التفكيكية في إعادة قراءة النص الديني بما فيه النص الحديثي النبوي، مركزة على أحاديث الصحيحين - البخاري ومسلم - كنموذج.

وأولى هذه الاستعصاءات اتخاذها من النص الديني نفسه موضوعا للاهتمام والدراسة؛ فقد بات من المعلوم الحداثة العربية لم تستطع في صيرورتها التاريخية الراهنة تجاهل النص التراثي وإحداث قطيعة إبستمولوجية معه لأن من شأن ذلك أن يحدث شرخا تأباه طبيعتها المنهجية ويتنافى وبنيتها الفكرية، لذلك عمدت إلى إعادة قراءته واستهدافه بأدواتها وجعله موضوعا للدرس النقدي، بيد أن رواد الحداثة تباينت رؤاهم وأحكامهم القيمة تجاهه وفي ضوء ما طرحوا من مقولات تباينت آراء الباحثين لإنتاجهم بين مؤيد لها مبرر لمناهجها وأدواتها وأحكامها.

كما أن الحداثيين العرب مارسوا ما يسمى "التميط الثقافي"، بتقديم المنظومة الغربية الحداثية كنموذج مطلق يفتدى، مع فقدان القدرة على النقد والتمييز بين السياقات الثقافية وعدم إدراك تعدد الحداثيات الغربية مكانيا وزمانيا، فإسقاط أي وسيلة على أي موضوع وتنزيل أي منهج على أي نص، يحتاج إلى التحقق من وجود المناسبة بين الوسيلة والموضوع والمنهج والنص المدروس، وإذا لم يحصل هذا كنا إزاء عملية إسقاط، أي تقديس النموذج الغربي بعد تنميته ونمذجته، في ضوء غياب منطق الاختلاف، وافتقاد الحداثي العربي - وهو ينقل من الغرب - لفلسفة خاصة به عن الوجود والحياة والناس والذات والمعرفة، ساعيا لتقديم نسخة عربية خاصة بما فهمه من المفاهيم الغربية. ومع حضور هذه الصعوبات وغيرها والتي لم تلتفت إليها الحداثة العربية حاولت جاهدة أن تتخذ من أحاديث الصحيحين موضوعا للنقد والمهدم، وأن تجعل من البخاري ومسلم ظهرا للجلد والتعزير.

وبناء على ما تقدم يمكن مناقشة هذا الموضوع وفق التصور الآتي:

مقدمة:

ثانيا: الاستعصاءات المنهجية في نقد الصحيحين

ثالثا: الاستعصاءات الفكرية الحداثية في نقد الصحيحين

رابعا: نماذج تطبيقية

خاتمة:

أولاً: مدخل مفاهيمي

1- تعريف الاستعصاءات:

الاستعصاءات جمع مفردة: استعصاء، واستعصى: مشتق من (عصى)، والعصا، مقصور: مصدر قولك عصي بالسيف يعصى إذا ضرب به، والعصيان: الامتناع عن الانقياد¹، واستعصى عليه الشيء: اشتد كأنه من العصيان².

والاستعصاء هو المانع: الذي يلزم من وجوده العدم ولا يلزم من عدمه وجود ولا عدم³، وهو أيضا العقبة: بفتح العين والقاف ج عقبات وعقاب، الطريق الصعب في أعالي⁴.

2- مفهوم الحادثة:

في المعنى اللغوي: يتحدد معنى الحادثة لغةً في قولهم: حدث الشيء يحدث حدثاً وحادثة وأحدثه فهو محدث وحديث. وكذلك استحدثه.. فالحدث هو إيجاد شيء لم يكن وابتدعه. والحديث والحدوث نقيض القدم والقدمية، وكون الشيء لم يكن. وما ابتدع، والمحدث هو الأمر المبتدع، واستحدثتُ خبراً أي وجدت خبراً جديداً، والحديث الجديد من الأشياء. والحدث هو الشباب أو الأمر المنكر الذي ليس معتاداً ولا معروفاً، العالم محدث أي له صانع وليس بأزلي، فالحادثة هي الجدة، وأول الأمر وابتدأه⁵.

الحادثة وفق البعد التاريخي هي مرحلة تاريخية بلغت مجتمعات إنسانية في مسارها التاريخي، و "الحادثة هي ظهور ملامح المجتمع الحديث المتميز بدرجة معينة من التقنية والعقلانية والتفتح"⁶. والحادثة كونياً هي " ظهور المجتمع البرجوازي الغربي الحديث في إطار ما يسمى بالنهضة الغربية أو الأوروبية، هذه النهضة التي جعلت المجتمعات المتطورة صناعياً تحقق مستوى عالياً من التطور، مكنها ودفعها إلى غزو وترويض المجتمعات الأخرى"⁷.

¹ التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي القاهري، ت: عبد الخالق ثروت، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1410هـ-1990م، ص242.

² لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، الناشر: دار صادر - بيروت، ط1، د.ت، مادة (عصى)، 67/15.

³ الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، المؤلف: زكريا الأنصاري، ت: مازن المبارك، الناشر: دار الفكر المعاصر - بيروت، ط1، 1411هـ، ص82.

⁴ معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنبي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1408هـ - 1988م، ص317.

⁵ ينظر: كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، مادة حدث: 354، ولسان العرب، ابن منظور، مادة حدث: 130-134.

⁶ مدارات الحادثة، محمد سبيلا، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2009م، ص123.

⁷ المرجع نفسه.

وعبر هيغل عن هذه الحداثة بمفهوم الأزمنة الحديثة، ف "يبدأ هيغل باستخدام مفهوم الحداثة، في سياق تاريخي ليشير إلى عصر: "الأزمنة الجديدة"، أو "الأزمنة الحديثة"، والتي تشير إلى اكتشاف "العالم الجديد"، وعصر النهضة، والإصلاح، هذه الأحداث الهامة التي حدثت حوالي عام 1500هـ، تشك العتبة التاريخية بين العصور الوسيطة والأزمنة الحديثة"¹.

أما الدلالة الفكرية التي أعطيت لمفهوم الحداثة، فتشير إلى حركة الاستنارة الفكرية التي عرفتها المجتمعات الغربية، وثمة ما يشبه الإجماع على أن الحداثة مرتبطة تمامًا بفكر حركة الاستنارة الذي ينطلق من فكرة أن الإنسان هو مركز الكون وسيده، وأنه لا يحتاج إلا إلى عقله سواء في دراسة الواقع أو إدارة المجتمع أو للتمييز بين الصالح والطالح، وفي هذا الإطار يصبح العلم هو أساس الفكر، مصدر المعنى والقيمة، والتكنولوجيا هي الآلية الأساسية في محاولة تسخير الطبيعة وإعادة صياغتها ليحقق الإنسان سعادته ومنفعته، والعقل هو الآلية الوحيدة للوصول إلى المعرفة².

ثالثاً: الاستعصاءات المنهجية في نقد السنة

الناظر إلى آراء وأقوال الحداثيين في الوحي عموماً وفي السنة النبوية بشكل خاص يجد عوائق واستعصاءات منهجية يعاني منها الحداثيون بشكل أو بآخر في قراءة نصوصها والحكم عليها، وهذه أهمها:

1- غياب البعد المصدري للنصوص النبوية (أزمة القراءة الحداثيّة مع النص الديني)

يمثل غياب "البعد المصدري" للنص النبوي، أو "تغييبه" في القراءة الحداثيّة خطأً منهجياً، بل يمثل "أزمة" و"خطباً" أيّ خطب؛ إذ النصوص الدينية عموماً لا تقبل الانفصال عن قائلها، وعن مراده، فالقرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى، والحديث هو من الوحي الذي تكلم به الرسول صلى الله عليه وسلم، وأي نظرة إلى كلام الله، عز وجل، أو كلام رسوله، صلى الله عليه وسلم، تستبعد "المتكلم" تقع في محاذير كثيرة، ليس أقلها عدم إدراك عظمة مصدر النص، الذي يُعامل معه وبَيّن مراده، فهماً وتنزيلاً، واستنباطاً واستدلالاً، ومن ثم إعطاء المشروعية لكل عمليات النقد والتخطئة والمراجعة والتصحيح، والتنقيح، وما يستوجب الحكم بالنقص أو وجود الخلل والخطأ، وهدم مصداقيته.

¹ القول الفلسفي للحداثة، يورغن هابرماس، ترجمة فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995م، ص 13.

² دراسات معرفية في الحداثة الغربية، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، 2006م، ص 34.

وعليه فإن الحدائين حينما يتعاملون مع هذه النصوص فإنهم يقرأونها مجردة ومقطوعة عن مصدريتها المقدسة ويتناولونها كأبي نص أدبي مات مؤلفه، وهذا يعد خرقاً منهجياً في تعاطي النص الديني عموماً.

2- غياب القراءة الجامعة (القراءة الحدائية المتهافنة للنص الديني)

تتميز القراءة الحدائية بالقراءة التقطيعية التجزيئية للنصوص الدينية؛ وهذا واضح في تناولهم لبعض الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية المشرفة، التي تتحدث عن: حجاب المرأة، وميراثها، ومنزلتها في الإسلام، وإقامة بعض الحدود.... وغير ذلك من أوهام وشبهات، مقتطعة من سياقها؛ فكانت قراءتهم لها قراءة "متهافنة" تعتمد آليات خاصة لا يستعان بها على فهم المعنى المراد للنص، ولا تؤيد الأفكار الماثوثة فيه، بقدر ما تجعله وثيقة تخدم مصالح فئة معينة، في ظروف تاريخية معينة، وهذا يخالف الشرط المنهجي للقراءة الصحيحة، التي تعامل القرآن الكريم، والسنة الشريفة "كاللفظة الواحدة" وأن كل جزء من هذه اللفظة ينبغي النظر إليه في ضوء علاقته مع الأجزاء الأخرى.

3- الغموض وأزمة المنهج:

يجمع بين القراءة الحدائية قاسم مشترك هو الغموض، إذ يعتبر الغموض الفكري والمنهجي والمصطلحي ظاهرة بارزة في هذا الخطاب، حيث اتخذ الإغراب والتعقيد تعويضاً عن الضحالة الفكرية والتضارب المنهجي الغالب على هذه الكتابات، وقد يبلغ هذا الغموض درجة "الإرهاب المصطلحي" عند بعض الحدائين في تعاملهم مع القرآن الكريم كمحمد شحور، بحيث لا يتردد القارئ في البداية باتهام نفسه بقصور الفهم والاستيعاب، فيصرف كل جهده لفك رموز ومغاليق "الكتاب والقرآن"، لكنه لا يلبث طويلاً حتى يكشف ضحالة المعاني والدلالات، فيكون قد كرس قواه وهث وراء السراب لأن غموض التعبير هو حتماً نتيجة لغموض التفكير، وكل استعلاء فكري إنما هو تغطية عن قلة الزاد المعرفي، وهو ما عبر عنه محمد أركون، نفسه فعاب على غيره الغموض والإبهام قائلاً: "يستخدمون الرطانة الفلسفية ويتلاعبون بها؛ أقصد الكلام الغامض المبهم الذي يقول كل شيء ولا يقول شيئاً يذكر، أقصد العبارات الملتوية المعقدة التي توهم أنها تحتوي على أغاز الكون وأسراره وهي فارغة من المعنى"¹.

ثم إن القراءة الحدائية للآيات القرآنية لا تفترض منهجاً علمياً محددًا في التعامل مع النص القرآني، بل تتبنى عدة مناهج مختلفة أو حتى متناقضة في الآن نفسه، فتجد الواحد منهم مثلاً يتبنى الماركسية والبنوية ونظرية

¹ الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، لبنان، ص 250.

التلقي في الوقت نفسه رغم أن بعضها قام على أنقاض بعض، مما يجعل هذا الخطاب بعيدا مطلقا عن الانسجام الفكري أو متمسا باللامنهج، وهذا مزية للبحث العلمي بالنسبة لمحمد أركون، ويسميه بالمنهج متعدد الاختصاصات¹، وقال في كتابه: "القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني": "إن وجهة النظر هذه تتخذ أهمية حاسمة... لأنها هي وحدها التي تجربنا على الربط بين مختلف أنواع المنهجيات التحليلية"²، فهو من خلال المزج بين العديد من المناهج، ينتظر ولادة فكر تأويلي جديد للظاهرة الدينية، ويغطي على ذلك بما يسميه بـ"الإسلاميات التطبيقية" التي يدعي أنها تحتاج إلى مناهج متعددة في نفس الآن.

والحقيقة أن هذا اللامنهج الذي ينهجه إنما رمى بفكره في العيشية، وقد سبقه إلى ذلك الفيلسوف "فيراباند بول"؛ وهو من فلاسفة ما بعد الحداثة الذين دعوا إلى نظرية الفوضى؛ ألف كتابا بعنوان: "ضد المنهج"، ودعا إلى إعادة الاعتبار إلى التنجيم والكهانة والأساطير، بعد أزمة العقل الغربي الذي كانت الحداثة قد رفعتة إلى مستوى التقديس، وألف كذلك كتاب: "وداعا للعقل" حارب فيه العقل والموضوعية، وادعى بأن العلم ليس أدق ولا أنفذ من الأسطورة، ولهذا نجد اهتماما بالغا من محمد أركون بالأسطورة والفكر الخرافي، قال: "ينبغي القيام بتحليل بنوي لتبيين كيف أن القرآن ينجز أو ييلور (بنفس طريقة الفكر الأسطوري الذي يشتغل على أساطير قديمة متبعثرة) شكلا ومعنى جديدا... لأنه من المهم أن نعرف مدى تشظي الأساطير المعاد استخدامها إذا ما أردنا أن نطلق حكما دقيقا على الروابط بين الأسطورة والتاريخ وبين العجيب المدهش وبين الوقائع الحقيقية وذلك فيما يخص القرآن"³، وفي هذا الكلام تقليد سافر "فيراباند بول" وأمثاله من الفلاسفة، فهل على تفسير القرآن الكريم أن يتجرع الأخطا الفكرية المرة التي تسفر عنها الحرب بين النظريات الفلسفية الغربية!

وعلى العكس من هذا نجد أن في التراث الإسلامي عموما مجموعة من الأنساق الفكرية المنسجمة، حتى وإن كانت تمثل انحرافا عقديا أو غلوا فكريا كما هو الأمر بالنسبة إلى فرق الشيعة والخوارج والمعتزلة، وقد كان هذا الأمر وراء ظهور الآراء الشاذة عندما يحاول المجتهد الوفاء لمنهجه الفكري⁴.

¹ الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة: هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ص 125.

² المرجع نفسه، ص 70

³ المرجع نفسه، ص 203.

⁴ فيكون رأيه شاذًا بالنسبة إلى الآخرين منسجما مع مذهبه هو، وقد يكون مقتنعا بمخالفة هذا الرأي للأصول العامة للفكر الإسلامي، إلا أنه يقدم الالتزام المنهجي، لذلك كانت الصرامة المنهجية في التفكير من خصوصيات كل التراث الإسلامي بما في ذلك التفسير.

ومن مظاهر أزمة المنهج في القراءة الحداثية وهي مشكلة الحداثة الأولى في مقاربتها النص الديني، وهي الدعوة إلى "ضرورة" قراءة النص الديني، خارج "تداوله" أي: خارج نطاق أي قراءة أسبقية تراثية له، في فصل تام بين النص الديني الإسلامي، وكل القراءات الضابطة لفهمه وتفسيره في التراث العربي الإسلامي، وذلك لصالح المنهجية الغربية المسيحية في تحليل الخطاب، وقراءة النصوص؛ فراحوا يسقطون على "النص الديني" الإسلامي كل ما ظفروا به من "آليات القراءة" و"أدواتها" في نتاج الآخرين، وأطلقوا العنان لقراءة النص الديني وفهمه وتحليله من خلالها.

4- وحدة المصدر في إلقاء الشبهات:

يتفق الحداثيون والعلمانيون وأصحاب المناهج اللاعقلانية، ابتداءً من مدرسة جمال الدين الأفغاني ومن سار على دربها كأحمد أمين، أو من جاء بعدها كأبي رية وبعض معاصريه، ومن ثمَّ علمانيو زماننا أصحاب المناهج العقلية الغربية كأركون وحسن حنفي وشحرور، وهؤلاء تتفق كلمتهم مع المستشرقين تماماً، فالمصدر واحد، أغلبه من اليهودي (جولدتسيهر).

والذين شنوا هجمات عديدة على البخاري خاصة، والسنة بعامة، بلغت بهم الوقاحة أن كتب أحدهم واصفاً أحاديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري ومسلم بأنها: "غريبة خالية من كل مضمون فكري أو علمي أو اجتماعي أو ديني، وليس فيها سنة ولا تشريع، ولا شيء يفيد المسلمين في دينهم وديناهم"¹. ومع كل ذلك فإنه لم يُكتب لهجمات الظلمة والمفترية القبول والنجاح، ولقد اعترف العلمانيون بأزمتهم في حرب السنة والطعن فيها فهي هو أحدهم يقول: "كان جلياً أن موقف إنكار السنة لم تكن له حظوظ في الانتشار والقبول"²، إلا أنه لم يدب فيهم الوهن ليتوقفوا عن باطلهم ولم ييأسوا منه، كما قال ربنا: (ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزا) [مریم: 83].

وقد كتب العلمانيون في نقد صحيح البخاري كتباً عديدة مثل:

ما كتبه محمود أبو رية (أضواء على السنة المحمدية)، وما كتبه حسن الصباغ (صحيح البخاري رؤية معاصرة)، وما كتبه صالح أبو بكر (الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها)، وما كتبه زكريا أوزون (جناية البخاري - إنقاذ الدين من إمام المحدثين)، وغيرها من الكتابات.

¹ تدوين السنة، إبراهيم فوزي، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ص 274.

² السنة بين الأصول والتاريخ، حمادي ذويب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص 71.

والناظر بشكل عام لهذه الكتب التي تعرضت لنقد السنة عامةً أو صحيح البخاري خاصة، سيجد أن هذه الكتب تجتاز أفكار جولد تسيهر اليهودي، فالمادة هي هي مع اختلاف الصياغة فقط.

فما هو الفارق بين افتراء جولد تسيهر (اليهودي) الذي يقول: "ولا نستطيع أن نعزو الأحاديث الموضوعية للأجيال المتأخرة وحدها، بل هناك أحاديث عليها طابع القدم، هذه إما قالها الرسول، أو هي من عمل رجال الإسلام القدامى"¹، وبين ما يفتره حسن حنفي في مقدمته لكتابه "علوم الحديث من نقد السند إلى نقد المتن" في مقدمته والتي سماها نقد المصادر!!، قائلاً: "الهدف من هذه المقدمة هو ضياع إرهاب علم الحديث باعتباره علماً مقدساً، وبيان أنه من وضع المحدثين بأهوائهم ومذاهبهم وأهدافهم"²، أو ما ذكره حسن الصباغ من كون أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم غير ملزمة ولو صحت عنه؛ لأنه بشر!!!"³.

حتى قال البرفسور ج. روبنسون: "لا ينكر جولد تسيهر بالكلية وجود أحاديث صحيحة ترجع إلى القرن الأول بل حتى إلى فم النبي نفسه".

فالشبهات هي هي والنتيجة واحدة نصّ عليها حسن حنفي، مع اختلاف الصياغة فقط، هذا فيما يخص التقليد الذي أنتجه من باعوا عقولهم لليهود والطاعنين في هذا الدين.

ثالثاً: الاستعصاءات المعرفية في نقد السنة

الناظر إلى آراء وأقوال الحداثيين في الوحي عموماً وفي السنة النبوية بشكل خاص يجد أيضاً عوائق واستعصاءات معرفية يعاني منها الحداثيون بشكل أو بآخر في قراءة نصوصها والحكم عليها، وهذه أهمها:

1- غياب المرجعية اللغوية (القراءة الحداثيّة والانحراف عن معهود العرب في الخطاب):

لعل غياب "المرجعية اللغوية" هو الخطأ، بل "الخطيئة" الكبرى، ومن "الإصابات" الفكرية البالغة التي وقع فيها الحداثيون، في أثناء مقاربتهم النص الديني؛ فمن ضوابط القراءة الصحيحة: أن مقارنة أي نص لغوي تستدعي الوقوف على حدود لغته التي تحمل بلاغته، ومعرفة مقاصد أصحابها في كلامهم، وأن يؤول الكلام بما يوافق "معهود الخطاب المتبادل بين المتكلمين"⁴ و"عرف المخاطب" و"عادته المطردة".

¹ العقيدة والشريعة في الإسلام، إيجناس جولد تسيهر، ت: محمد يوسف موسى، دار الكتب الحديثة، بيروت، ص 49.

² وكتابه هذا من سلسلة له أسماها (من النقل إلى العقل، حسن حنفي، الهيئة المصرية للكتاب، ط1، وكلامه في ص 07.

³ صحيح البخاري رؤية معاصرة، حسن الصباغ، دار الينابيع، مصر، ص 219.

⁴ انظر: معهود العرب في تلقي الخطاب القرآني، إسماعيل نقارز، مقال بمجلة الحوار المتوسطي، ع 13-14 ديسمبر 2016، ص 133-148.

حين يؤول أمر "النص الديني" قرآنًا وسنة، هذا المآل، في قراءات الحدائين، فإن الاحتكام إلى "منهجية" توجه القراءة، وتضبط مسارها، فهمًا وتفسيرًا وتأويلًا، وتحمي "النص" من أن يكون مجالًا للتزويد والإفحام، أو العبث واللهو، وتمكّن من "الفهم" الصحيح لمقاصده، يكون أمرًا ضروريًا، فمن لم يكن "مقياسه" مضبوطًا كل الضبط، فإن المعاني تختلط عليه وتمتج، ووقع في "التيه" الذي أدخلتنا فيه الحداثة، وما بعدها!!

وهذه "المنهجية" محكومة بأصل عام، يمثل "مرجعية" لها، وهو: أن تكون "قراءة" النص الديني الإسلامي، على "طريقة العرب في خطابها"¹ و"مسالكها في تقرير معانيها" و"منازعتها في أنواع مخاطباتها" و"عادات اللسان العربي في الاستعمال، وخصوصياته في توزيع المعاني على الألفاظ" وأن يفهم وفق مدلوله العربي، الذي يتبادر إلى الذهن، من دون ليٍّ ولا إغراب، ولا تعطيل لمعزي، أو إفحام لمعنى.

2- نفي المحكمات عند الحدائين:

لقد ظهرت أزمة الحدائين مع النص في التعامل مع المحكمات من خلال منطلقاتهم التي لا تراعي مقصد الشريعة بقدر ما تراعي المناهج التي ترعرعت على أيدي المستشرقين، فأقبلوا على القرآن من موقع ترك العلوم والمعارف والأدوات التي تعد آلة معيارية لفهمه فهما صحيحا، وظنوا أن القواعد التفسيرية هي مجرد وضع وضعه علماء الإسلام مستعملين في ذلك قياس الشبه بين علماء الدين والكنيسة _ مع الفوارق _ واعتبروا النص الديني صنعا بشريا تشكل مع الواقع في جميع مراحل² فهو عندهم نص لغوي مرتبط ثقافيا واجتماعيا ببيئته التي نشأ فيها، وليس لقضاياها أي قيمة قدسية أو علمية³؛ ولذلك فإن قراءته تتم عبر آليات (العقل التاريخي للإنسان) وليس طبقا لآليات العقل الغيبي الغارق في الخرافة والمنطق الأرسطي⁴؛ وعليه فإنه كما يقول محمد أركون: "لا توجد أصول دائمة وأبدية وإنما هناك أصول متغيرة بتغير العصور، ومن ثم فتأسيس النهائي للحقيقة والعقل شيء مستحيل، لأن الحقيقة أصبحت نسبية، ولم تعد مطلقة وأبدية، كما يتوهم الأصوليون من كل الأنواع والأجناس"⁵.

¹ المرجع السابق.

² ينظر: نقد الخطاب الديني نصر أبو زيد، سينا للنشر، مصر، ط3، 1993م، ص136.

³ نفسه، ص23.

⁴ نفسه، ص23.

⁵ معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي للطباعة والنشر، بيروت، ص37.

ويرى جمال البنا أن أهم ما ينبغي التوجه إليه وتغييره هو الثوابت لأنها وإن كانت تحافظ على استقرار المجتمع وتعصمه من الانزلاق؛ إلا أن عدم مناقشتها يجعلها تتجمد وتَتَوَثَّنُ، وتأخذ قداسة المعبود¹، وأول هذه الثوابت التي ينبغي أن يطالها معول الهدم والتشكيك - في نظر هؤلاء - هي العقائد فمحمد أركون يرى أن أكبر عائق للعقل العربي أمام الإبداع هو التسليم للعقائد وعدم اعتبارها مجرد قضايا تاريخية².

إن عملية "نقد الأفكار الدينية، التي تخدم حادثة الإنسان العربي، كما يقول محمد أركون، "ليست شيئاً محصوراً بحداثتنا الراهنة فسابقاً كان ابن رشد بالنسبة إلى الإسلام وابن ميمون بالنسبة إلى اليهودية والقديس توما الإكويني بالنسبة إلى الكاثوليكية قد حققوا العملية على أوسع صعيد"³. ومن ثم، بإمكاننا - نحن اليوم - تحقيق العملية نفسها؛ ولم لا؟ تجاوزها إلى المدى الذي نحقق من خلاله، توازناً وتكاملاً بين هواجسنا الفكرية ورغباتنا الواقعية؛ حيث الانتصار - شيئاً فشيئاً - للعقل ومنه الانتصار لحداثتنا الراهنة.

ولا غرو أن هاته الثلاثية (ابن رشد وابن ميمون والقديس توما الإكويني)، استطاعت بنظرتها ونباهتها العلمية، أن تخرج العقل الإسلامي واليهودي والمسيحي بالتتابع من بؤرة التخلف الأسطوري للقرون الوسطى، انطلاقاً من إخضاع المجال اللاهوتي للنقد الأبيستمولوجي مع العلم، أن العوامل الدينية والأخلاقية والسياسية والمعرفية، بقيت كلها مترابطة فيما بينها، متكاملة بشكل لا تنفصم⁴.

وهكذا استطاع البعد الفلسفي الإنشروبولوجي -في البداية- أن يكون مجالاً مركزياً وأساسياً، وفعالاً أيضاً، في تشكيل النهضة الفكرية والثقافية التي بدأت ولم تكتمل مع ابن رشد والغزالي⁵، مؤسساً أسس المناظرة الفكرية الخلاقة.

3- عائق الطاعة: من عقل الطاعة إلى " طاعة "العقل

شكلت النصوص النبوية المتضمنة مبدأ الطاعة الذي أقره القرآن الكريم في آيات مختلفة، نحو قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ

¹ الحرية في الإسلام، جمال البنا، مؤسسة الانتشار العربي، مصر، 2010، ص 12.

² الفكر الإسلامي قراءة علمية أركون، ص 15.

³ محمد أركون، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقى للطباعة والنشر، بيروت، ص 180.

⁴ الحركات الأصولية، عبد الرحيم خالص، ص. 116

⁵ انظر الدراسة المفصلة التي خصصها محمد عابد الجابري لابن رشد تحت عنوان " مشروع قراءة جديدة لفلسفة ابن رشد" من خلال: محمد عابد الجابري، نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، ص 260. وكذلك دراسة محمد أركون حول ابن رشد والغزالي من خلال كتابه: محمد أركون، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟، ص 116.

كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [النساء:59]، وغيرها من الآيات، كما عقد البخاري في صحيحه في كتاب التفسير باباً أسماه: "باب قوله { أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم }"¹، وعقد مسلم أيضاً في صحيحه باباً أسماه: "باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية"².

وعليه فإن الفكر الحدائثي يعمل جاهداً على إزاحة هذا العائق وإبعاده قدر الإمكان بهدف التحرر الفكري، ويعززون ذلك إلى السلطة السياسية هي التي أنتجت هذا المفهوم وفرضته على عقول المسلمين.

فالبحث عن أفق للتحرر الفكري والأخلاقي والديني من عقال التسلط السياسي والمعرفي لدى أهل الرياسة في الدين والسياسة، ظل خيط النور الوحيد الذي يربط الحاضر بالماضي، واليوم بالأمس، ونحن نبحث عن هويتنا الضائعة بين ركام ماضي انتهاكات حقوق الإنسان العربي المسلم، في حرية الرأي والتعبير، وفي كل ما يرتبط بحاجيات ومتطلبات حياته الخاصة والعامة.

وتلك إشكالية، تذكرنا بالجرح الذي سببته "الفتنة الكبرى"³ منذ "واقعة التحكيم"⁴ إلى اليوم. إشكالية نبلورها اليوم، عبر أسئلة الإنسان العربي المسلم حول طموحاته وهوامجه في الإمساك بخيوط النهضة والديمقراطية والحدائث من جهة، والإفلات من عقال الاستبداد ومرتكزاته في السياسة والمعرفة والأخلاق من جهة أخرى! فهل يا ترى بإمكان أسئلة التحليل والنقد والتفكيك، الموجهة للفكر العربي الإسلامي، أن تسعفنا في تصحيح الثغرات التي سجلتها أروقة المعرفة والسياسة في بلاط الحاكم المستبد، منذ الفتنة الكبرى إلى اليوم؟

¹ الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل البخاري، ت: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، ط3، 1407-1987، 4/1674.

² صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، 3/1465.

³ إثر تحول نظام الخلافة والإمامة في الإسلام، بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، إلى حكم سياسي عضوض. وتولى، معاوية بن أبي سفيان، أمور الدولة والحكم بعد واقعة التحكيم الشهيرة. انظر للمزيد من المعلومات حول الفتنة الكبرى كتاب طه حسين؛ وأيضاً كتاب: قراءة جديدة للفتنة الكبرى، محمد المختار العبيدي، تونس: دار محمد علي الحامي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2008م.

⁴ هي عملية التحكيم التي دارت وقائعها بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، بخصوص من يتولى قيادة أمور المسلمين؛ حيث، تم الاتفاق بين ممثلي الطرفين على إقصاء علي ومعاوية وتنصيب شخص آخر مكانهما تنفق الجموع الحاضرة عليه بالشورى والرضى. غير أن ما وقع من "تحايل" في المواقف المتفق عليها وتحويل مجراها لصالح معاوية بن أبي سفيان على حساب علي بن أبي طالب، ورضا هذا الأخير بالأمر الواقع، هو الذي قاد - إن صح التعبير - المجتمع السقيفي آنذاك إلى الانقسام على علي بن أبي طالب، بين شيعة وخوارج إلى اليوم. وظلت؛ من ثم، هذه الأحداث راسخة في الذاكرة العربية الإسلامية باسم واقعة التحكيم. انظر للمزيد من التفاصيل، مرجع "الأخبار الطوال" لأبي حنيفة الدينوري، عند: خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت، ص 600-603، وأيضاً: قراءة جديدة للفتنة الكبرى، محمد المختار العبيدي، ص 77-78.

إلى أي حد، سوف تسعفنا القيم الأخلاقية والدينية داخل الثقافة العربية الإسلامية، في تجاوز الأزمات التي عاناها - ولا يزال يعانيها - المجتمع العربي الإسلامي منذ الفتنة الكبرى إلى اليوم؟

بتعبير مختصر ودقيق: هل من سبل لتجاوز أصول ومرتكزات الاستبداد - في الثقافة العربية الإسلامية - بغية النهوض بنظام سياسي ديمقراطي، ومجتمع أخلاقي حديثي، يعلن أفول "مرض الطاعة"، العمود الفقري للاستبداد السياسي (والمعرفي)؟

لا يمكن بتاتاً وأبداً - لإنسان ما، وكيفما كانت مكانته أو قوته أو أملاكه - من العيش من دون العمود الفقري. فهو أساس البنيان الذاتي للإنسان، ومن دونه لا يمكن للجسد أن يقوم بأدنى حركة. هو المحرك الذي يوجه الفعل الإنساني، ويسهل مرونة حركته، كما يساعده على النظر في جميع الاتجاهات.

4- جعل الرسل والرسالات مناقضة للعقل وسبباً للتخلف:

هذا الوجه من أوجه انحرافات أصحاب الحداثة يصحح أن يكون مقدمة لغيره من أوجه الانحرافات، ويصحح أن يكون غاية لكل الانحرافات في الكتب المنزلة وفي الرسل والرسالات؛ إذ يعتبر كثير من الحداثيين العرب الذين يعيشون بين ظهري المسلمين، ويتسمون بأسمائهم وقد يمارسون بعض شعائر الإسلام، أمثال: السياب، وصلاح عبد الصبور، وأمل دنقل، والمقالح، وحجازي، وأمير الخولي، ومحمد خلف الله، وجابر عصفور، وحسن حنفي، ونصر أبو زيد، وطه حسي، والطهطاوي، وعبد الرحمن منيف، والفيتوري، وغيرهم كثير، يعتبرون الإسلام كله تراثاً، ويجحد أغلبهم بالرسالات ويشككون في وجود الرسل وفي صدقهم.

يراد من وراء ذلك الوصول إلى هدم مبدأ النبوة ومبدأ الاتباع والطاعة للأنبياء، في مهرجان جاهلي يؤله العقل الكليل ويقدمه، تحت مزاعم أن الرسل ورسالات مضادة للعقل ومناقضة للمصلحة والتقدم والرفق والحضارة، إلى غير ذلك من الدعاوى الباطلة والافتراءات الجاهلة، التي لم تكن وليدة هذا العصر بل هي من قديم، قدم الصراع بين التوحيد والثنية والحق والباطل والنور والظلام¹، وقد قال فرعون عن موسى: (إني أخاف أن يبديل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد) [غافر: 26]، وقال: (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين) [الزحرف: 52].

¹ الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، سعيد بن ناصر الغامدي، درا الأندلس الخضراء، جدة، ط1، 1424هـ-2003م، ص1294.

وكلامهم في هذا الصدد متنوع ومتعدد، وإن من أوائل من فتح لهم هذا الباب هو طه حسين الذي اصطنع الشك واستنسخ الشك من ديكاوت، ليسلطه على الحقائق الدينية والتاريخية، بل حتى على بعض المسائل الاعتقادية، وذلك حين ادعى أن القرآن والتوراة لا يكفیان حين يتحدثان عن إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات القصة التي تتحدث عن هجرة إسماعيل إلى مكة، والنتيجة المترتبة على ذلك من انتساب العرب المستعربة إلى سيدنا إسماعيل، وادعى أن هذه القصص منتحلة وضعها اليهود الذين يستوطنون شمالي البلاد العربية، وأن القرآن إنما اصطنع من هذه القصص احتيالا لإثبات الصلة بين الإسلام واليهودية أو بين القرآن والتوراة والعرب واليهود¹.

وقد كتبت لجنة العلماء في مصر تقريرا مفصلا عن كتاب "في الشعر الجاهلي" الذي ذكر فيه القول الشنيع عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وقد قررت اللجنة أن الكتاب "كله مملوء بروح الإلحاد والزندقة، وفيه مغامر عديدة ضد الدين مبنوثة فيه لا يجوز بحال أن تلقى إلى تلامذة لم يكن عندهم من المعلومات الدينية ما يتقون به هذا التضليل المفسد لعقائدهم"².

وبينوا "أنه إذا لم تكافح هذه الروح الإلحادية في التعليم ويقتلع هذا الشر من أصله وتطهر دور التعليم من اللادينية التي يعمل بعض الأفراد على نشرها بتدبير وإحكام تحت شعار حرية الرأي، اختل النظام وفشت الفوضى واضطرب حبل الأمن؛ لأن الدين هو أساس الطمأنينة والنظام.

والكتاب وضع في ظاهره لإنكار الشعر الجاهلي، ولكن المتأمل قليلا يجده دعامة من دعائم الكفر ومعولا لهدم الأديان، وكأنه ما وضع إلا ليأتي عليها من أصولها وبخاصة الدين الإسلامي"³.

وقد صرح طه حسين بحقيقة قوله في عدة مواضع، من ذلك قوله: "للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة"⁴. ثم يقول أيضا: "نحن مضطرون إلى أن نرى

¹ انظر: الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث، للدكتور الكتاني، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1403هـ- 1982م، 2/ 1095، ونقد كتاب في الشعر الجاهلي لمحمد فريد وجدي، طبعة دائرة معارف القرن العشرين، مصر، 1926م، ص76.

² انظر نص التقرير في: كتاب تحت راية القرآن، ص167- 172.

³ نقد كتاب في الشعر الجاهلي، ص26.

⁴ المصدر نفسه.

في هذه القصة نوعا من الحيلة لإثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين اليهودية والإسلام والقرآن والتوراة من جهة أخرى¹.

ثم يضيف: "وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح"، إلى أن قال: "إذا فليس ما يمنع قريش من أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم كما قبلت روما أنها متصلة بإينياس بن بريم² صاحب طراودة³، أمر هذه القصة إذا واضح، فهي حديثة العهد قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضا، وإذا فيستطيع التاريخ والأدبي واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى⁴.

ولا شك أن هذه الأقوال تتضمن إلحادا مكشوفًا ومعارضة صريحة للقرآن العظيم وكفرا بالله وآياته ورساله، وتكديبا للنصوص القاطعة وللرسول صلى اله عليه وسلم الذي أوحى إليه من ربه: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) [البقرة:127]، (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) [الحج: 26-27]. وهذا الذي قاله طه حسين عن القرآن والسنة هو عين ما قاله المشركون من قبل: (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) [الفرقان: 4-5].

5- مكانة الصحيحين عند الأمة الإسلامية:

لعل من أهم وأكبر العوائق المعرفية التي يعانى منها الحداثيون المكانة السامقة التي يحظى بها الصحيحان في وعي الأمة الإسلامية ووجدانها، فلا شك أن صحيح البخاري قد حاز الرتبة العليا والقبول، حتى اتفقت الأمة على حجّيته وعلو رتبته كونه أعلى وثيقة حديثة روت لنا سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ولذا كان محط أنظار علماء الحديث في كل عصر ومصر، حتى قال فيه الإمام الجويني وفي صنوه (صحيح مسلم): (لو حلف إنسان بطلاق

¹ المصدر السابق، ص27.

² في الأساطير اليونانية والرومانية إينياس كان بطل طراودة، نجل الفارس أنتنثيسيسة والإلهة أفروديت، وكان والده أيضا ابن عم الملك: بريم الثاني من طراودة. وروى رحلة إينياس من طراودة مع مساعدة من أفروديت، والتي أدت إلى تأسيس مدينة روما. انظر: الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

³ طراودة: مدينة تاريخية قديمة تقع في أقصى الشمال الغربي من أواخر الكلاسيكية القديمة، عرفت حاليا بمنطقة الأناضول في تركيا الحديثة. الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

⁴ نقد كتاب في الشعر الجاهلي، ص29.

امراته أن ما في كتابي البخاري ومسلم مما حكما بصحته من قول النبي صلى الله عليه وسلم لما أُلزمته الطلاق، ولا حنته، لإجماع علماء المسلمين على صحتها¹.

ويروي أصحاب التاريخ أن الإمام مسلما (261هـ) دخل على الإمام البخاري (256هـ) فسأله عن بعض الأحاديث فبين له علله، وفي رواية: فقبل رأسه وهو يبكي، وفي رواية: فقبل رجله وهو يبكي، فقال له: والله لا ييغضك إلا حاسد يا أستاذ الأستاذين ويا سيد المحدثين ويا طبيب الحديث وعلله².

وهذه نتيجة حتمية بطبيعة الحال لما اعتمده صحيح البخاري من منهجية علمية بالغة الصرامة في قبول الحديث عُرفَت باسم شرط البخاري³.

من هنا نال صحيح البخاري موقع المركزية والمصدرية في علم الحديث الشريف، وفي نفس الوقت كان له الدور البارز في استعداد جموع الباطل لإسقاط صحيح البخاري، فكونه أعلى وثيقة مقبولة بين المسلمين جعلت من إسقاط هيئته بوابة لهدم السنة النبوية، لأن الطعن في صحيح البخاري يعني بالضرورة الطعن في كتب الحديث الأخرى من باب أولى، وهو تحصيل حاصل.

ومع هدم السنة النبوية يسهل الاستفراد بالقرآن الكريم، إما بتحريف الفهم الصحيح للقرآن جملة وتفصيلاً والذي يعتمد على السنة النبوية، أو بالطعن بالقرآن الكريم نفسه، وهكذا فإن نظام الإسلام بكامله يختل وينهدم! هذه حقيقة خطيرة استقصاء هدم البخاري من أعداء الملة.

¹ صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمائته من الإسقاط والسقط، أبو عمرو تقي الدين المعروف بابن الصلاح، ت: موفق عبدالله عبدالقادر، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط2، 1408هـ، ص86.

² ذكر ذلك: الإمام أحمد بن القصار، كما في: البداية والنهاية، كثير الدمشقي، ت: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1408هـ. 1988م، 5/ 74، و تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ت: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط1، 1422هـ - 2002م، 2/ 340، و تاريخ دمشق، بابن عساكر، ت: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1415هـ - 1995م، 42/ 271.

³ تفصيل هذه الشروط موجود في كتب علم الحديث المتخصصة.

رابعاً: نماذج تطبيقية

يدعي الحداثيون أنهم يحمون رسول الله من الأحاديث المكذوبة ومنها أحاديث البخاري، حتى ألف بعضهم كتاباً أسماه "صحيح البخاري نهاية أسطورة"¹، ومن بين الأحاديث التي كانت محل طعن ونقد كبيرين حديث أخرجه البخاري في صحيحه، يتحدث عن محاولة النبي صلى الله عليه وسلم الانتحار والتردي من رؤوس شواهد الجبال حين فتر عنه الوحي²، وقد استغل هؤلاء الفرصة لتوجيه ضربات قوية إلى الصحيح، غير أن قصور معرفتهم وقلة باعهم في علم الحديث أربكهم ولم يسعفهم في الخلوص إلى ما أرادوا.

أمرنا الله تعالى أن لا نتكلم في شيء بغير علم. أما الذين يدعون أنه يحمون حديث رسول الله من البخاري. ويرد على مثل هؤلاء:

أن من أراد أن ينتقد البخاري ومسلم فعليه أن يكون من أهل العلم ومن أهل الشأن ومن أهل التحقيق والدراية والرواية والإتقان، ونحن لا نعظم البخاري وإنما ننزله منزله التي أنزله أهل الشأن في هذا الباب، لأن من أنزله هذه المنزلة هم علماء الأمة قديماً وحديثاً.

ثم إن من طعن في البخاري لو كان يعلم معنى البلاغات في علم أصول السنة والمصطلح، لعلم أن الرواية التي دندنت حولها من أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن ينتحر لا تصح؛ فإن الإمام البخاري أخرجه في صحيحه وليس من شرطه، لأن هناك فرقا بين ما أسنده البخاري واشترط فيه الصحة وبين المراسيل والبلاغات، فالبخاري فلا يحتاج إلا بالمسند ولا يصحح إلا المسند³، فأمثال هؤلاء لا يعرفون العلل ولا يعرفون المصطلح.

فقصة انتحار النبي قصة ضعيفة وإن أخرجها البخاري، لأنه اشترط الصحة فيما أسنده، والحديث المسند معروف عند أهل العلم، ففي رواية عائشة: "ثم فتر الوحي"، ثم قال: وحزن فيما بلغنا... فهذا القول: -فحزن فيما بلغنا ليس من الحديث إطلاقاً بعد ذهاب خديجة بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى ورقة بن نوفل ليس من الحديث،

¹ من تأليف الكاتب المغربي: رشيد أيلال، سنة: 2017 وتعرض فيه إلى العلاقة التي تربط الإمام البخاري بصحيح البخاري المنسوب إليه -حسب زعمه- مع وضع مقارنة ودراسة في المخطوطات الأقدم لكتاب الجامع الصحيح، وقد لقي الكاتب انتقادات لاذعة وبعضها مكفرة من قبل أوساط مغربية وإسلامية مختلفة.

² أخرجه البخاري في كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة، رقم: 6581، 6/ 2561.

³ مصادر السنة ومناهج مصنفها، حاتم الشريف، 9/ 21.

وإنما هو من مراسيل الزهري ومراسيل الزهري ضعيفة¹. ثم إن هذه الرواية تحتاج إلى دراسة السند؛ فهذه الرواية عن معمر وليست عن يونس بن يزيد ولا عن عقيل بن خليل فهما أحفظ الناس في حديث الزهري.

ثم إن الإمام البخاري توفي سنة (256هـ) بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم (245 سنة) إذا أراد أن يصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يصل إليه بثلاثة.

وعليه فإن قصة انتحار النبي صلى الله عليه وسلم قصة منكورة، يؤيد ذلك الحديث الصحيح عن أبي هريرة في رواية البخاري قال صلى الله عليه وسلم: (من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبداً ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبداً ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبداً)².

خاتمة

بعد هذا العرض السريع يمكن استخلاص مجموعة من النتائج، أهمها:

1- الحداثة وفق البعد التاريخي هي مرحلة تاريخية بلغت مجتمعات إنسانية في مسارها التاريخي، والحداثة كونياً هي ظهور المجتمع البرجوازي الغربي الحديث في إطار ما يسمى بالنهضة الغربية أو الأوربية، جعلت المجتمعات المتطورة صناعياً تحقق مستوى عالياً من التطور، مكنها ودفعها إلى غزو وترويض المجتمعات الأخرى.

2- تشير الدلالة الفكرية التي أعطيت لمفهوم الحداثة إلى حركة الاستنارة الفكرية التي عرفتها المجتمعات الغربية.

3- الناظر إلى آراء وأقوال الحداثيين في الوحي عموماً وفي السنة النبوية بشكل خاص يجد عوائق واستعصاءات منهجية يعاني منها الحداثيون بشكل أو بآخر في قراءة نصوصها والحكم عليها.

¹ جامع التحصيل في أحكام المراسيل، أبو سعيد بن خليل العائلي، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، عالم الكتب - بيروت، ط2، 1407هـ - 1986م، ص89، و الموقظة في علم مصطلح الحديث، شمس الدين الذهبي، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غُدّة، مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، ط2، 1412هـ، 40/1.

² صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في سم النبي صلى الله عليه وسلم، رقم: 5442، 5/2179. أخرجه مسلم في الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه: رقم 109.

- 4- إن أولى هذه الاستعصاءات المنهجية اتخاذها من النص الديني نفسه موضوعا للاهتمام والدراسة؛ فقد بات من المعلوم الحداثة العربية لم تستطع في صيرورتها التاريخية الراهنة تجاهل النص التراثي وإحداث قطعة ابستمولوجية معه لأن من شأن ذلك أن يحدث شرحا تأباه طبيعتها المنهجية ويتنافى وبنيتها الفكرية.
- 5- الناظر إلى آراء وأقوال الحداثيين في الوحي عموما وفي السنة النبوية بشكل خاص يجد أيضا عوائق واستعصاءات معرفية يعاني منها الحداثيون بشكل أو بآخر في قراءة نصوصها والحكم عليها.
- 6- لعل "عدم الأهلية" وغياب "المرجعية اللغوية" هو الخطأ، بل "الخطيئة" الكبرى، ومن "الإصابات" الفكرية البالغة التي وقع فيها الحداثيون، في أثناء مقاربتهم النص الديني.
- 7- من أوجه انحرافات أصحاب الحداثة اعتبارهم الرسل والرسالات مناقضة للعقل وسببا للتخلف، وهذا يصح أن يكون مقدمة لغيره من أوجه الانحرافات، ويصح أن يكون غاية لكل الانحرافات في الكتب المنزلة وفي الرسل والرسالات.
- 8- لعل من أهم وأكبر العوائق المعرفية التي يعاني منها الحداثيون المكانية السامقة التي يحظى بها الصحيحان في وعي الأمة الإسلامية ووجدانها.
- 9- إن كون صحيح البخاري أعلى وثيقة مقبولة بين المسلمين جعلت من إسقاط هيئته بوابة لهدم السنة النبوية، لأن الطعن فيه يعني بالضرورة الطعن في كتب الحديث الأخرى من باب أولى، وهو تحصيل حاصل.

قائمة المصادر والمراجع:

● القرآن الكريم.

- الانحراف العقدي في أدب الحدائث وفكرها، سعيد بن ناصر الغامدي، درا الأندلس الخضراء، جدة، ط1، 1424هـ-2003م.
- البداية والنهاية، كثير الدمشقي، ت: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1408هـ. 1988م.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ت: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط1، 1422هـ - 2002م.
- تاريخ دمشق، بابن عساكر، ت: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1415هـ - 1995م.
- التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي القاهري، ت: عبد الخالق ثروت، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1410هـ- 1990م.
- جامع التحصيل في أحكام المراسيل، أبو سعيد بن خليل العلائي، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، عالم الكتب - بيروت، ط2، 1407هـ - 1986م.
- الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل البخاري، ت: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، ط3، 1407 - 1987.
- الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، المؤلف: زكريا الأنصاري، ت: مازن المبارك، الناشر: دار الفكر المعاصر - بيروت، ط1، 1411هـ.
- دراسات معرفية في الحدائث الغربية، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، 2006م.
- رجال حول الرسول، خالد محمد خالد، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت.
- صحيح البخاري رؤية معاصرة، حسن الصباغ، دار الينابيع، مصر.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث، للدكتور الكتاني، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1403هـ- 1982م.
- صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمائته من الإسقاط والسقط، أبو عمرو تقي الدين المعروف بابن الصلاح، ت: موفق عبدالله عبدالقادر، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط2، 1408هـ.
- العقيدة والشريعة في الإسلام، إيجناس جولد تسيهر، ت: محمد يوسف موسى، دار الكتب الحديثة، بيروت.
- الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة: هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان.
- الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، دار الساق، بيروت، لبنان.

- قراءة جديدة للفتنة الكبرى، محمد المختار العبيدي، تونس: دار محمد علي الحامي مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2008م.
- القول الفلسفي للحدائثة، يورغن هابرماس، ترجمة فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي المصري، الناشر: دار صادر - بيروت، ط1، د.ت.
- مدارات الحدائثة، محمد سيلا، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2009م.
- معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقى للطباعة والنشر، بيروت.
- الحرية في الإسلام، جمال البنا، مؤسسة الانتشار العربي، مصر، 2010م.
- معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنبي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1408هـ - 1988م.
- معهود العرب في تلقي الخطاب القرآني، إسماعيل نقارز، مقال بمجلة الحوار المتوسطي، ع 13-14 ديسمبر 2016.
- من النقل إلى العقل، حسن حنفي، الهيئة المصرية للكتاب، ط1.
- الموقظة في علم مصطلح الحديث، شمس الدين الذهبي، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غُدّة، مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، ط2، 1412هـ.
- نقد الخطاب الديني نصر أبو زيد، سينا للنشر، مصر، ط3، 1993م.
- نقد كتاب في الشعر الجاهلي محمد فريد وجدي، طبعة دائرة معارف القرن العشرين، مصر، 1926م.